تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

روى الإمام أحمد عن زِرّ، أن رجلا قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: «ماء غير ياسن أو آسن»؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إني لأقرأ المفصل؛ أجمع في ركعة واحدة. فقال: أهذّاً كهذّ الشعر، لا أبا لك؟ قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أولها مفصل ابن مسعود: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١). وروى أبو عيسى الترمذي عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم، سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قالوا: لا بشيء من نعمك ـ ربنا ـ نكذب، فلك الحمد» (٢).

ربع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قال الحسن: يعني: النطق. وقال الضحاك، وقتادة، وغيرهما: يعني: الخير والشر. وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّن لا يختلف ولا يضطرب، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ (٣) الَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض ـ يعني من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير، والسدي، وسفيان الثوري. وقد اختاره ابن جرير. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء. وكذا قال الحسن، وقتادة. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية [الحج: ١٨].

---

(١) المسند (٣٩١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) الترمذي (٣٢٩١) ، وحسنه الألباني . (٣) هي قراءة كما سبق بيانه .

وقوله: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ يعني: العدل، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل، ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢].

وقوله: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم، في سائر أقطارها وأرجائها. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنام: الخلق ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أي: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ : أفرده بالذكر لشرفه ونفعه، رطبا ويابسا. والأكمام قال ابن عباس: هي أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسرا، ثم رطبا، ثم ينضج ويتناهى يَنْعُه واستواؤه. وقيل: الأكمام: رفاتها، وهو: الليف الذي على عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يعني: التين. وقال العَوْفي عن ابن عباس: ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبنه. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَالرَّيْحَانُ ﴾ يعني: الورق. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالرَّيْحَانُ ﴾: خضرة الزرع. ومعنى هذا ـ والله أعلم ـ أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورق الملتف على ساقها. وقيل: العصف: الورق أول ما ينبت الزرع بقلا. والريحان: الورق، يعني: إذا أدجن وانعقد فيه الحب.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي الآلاء ـ يا معشر الثقلين، من الإنس والجن ـ تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدل عليه السياق بعده، أي: النِّعَمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها ، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: «اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد» [1]. وكان ابن عباس يقول: «لا، بأيها يا رب». أي: لا نكذب بشيء منها. روى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ، وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2].

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(١) سبق تخريجه في أول السورة .

(٢) المسند (٦/ ٣٤٩) ، وقال الهيثمي في الزوائد (٧/ ١٢٠) : « فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقه الجان من مارج من نار، وهو: طرف لهبها. قاله الضحاك، عن ابن عباس. وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ :من لهب النار، من أحسنها.وقال : من خالص النار. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم». ورواه مسلم(١).

وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تقدم تفسيره ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ يعني: مشرقي الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء. وقال في الآية الأخرى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل: ٩]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟

وقوله: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال ابن عباس: أي أرسلهما.وقوله: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾: قال ابن زيد: أي: منعهما أن يلتقيا، بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما.والمراد بقوله: ﴿ الْبَحْرَيْنِ ﴾ : الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان:٥٣].وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض،وهو مروى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطية، وابن أبزى. قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض.وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ أي: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يبغى هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه.وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] . والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد وقتادة . وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. وحكاه عن السدى عمن حدثه، عن ابن عباس. وروى مثله عن علي، ومجاهد أيضا. وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. عن عبد الله [بن مسعود] قال: المرجان: الخرز الأحمر .قال السدى وهو البُسَّذ بالفارسية.

وأما قوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢] ، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية إنما هي من الملح دون العذب.قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء في البحر، فوقعت في صدفة إلا صار منها لؤلؤة. وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع في صدفة نبتت بها عنبرة. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحوه.وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس،

(١) المسند (٦/ ١٦٨) ومسلم (٢٩٩٦/ ٦٠) .

قال: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف فى البحر أفواهها، فما وقع فيها ـ يعنى: من قطر ـ فهو اللؤلؤ. إسناده صحيح. ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ﴾ يعنى: السفن التى تجرى فى البحر، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهى منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت، وقال قتادة: ﴿الْمُنْشَآتُ﴾: يعنى المخلوقات. وقال غيره: المنشئات ـ بكسر الشين ـ يعنى: البادئات. ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أى: كالجبال فى كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب ـ تعالى وتقدس ـ لا يموت، بل هو الحى الذى لا يموت أبدا. قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فان. وفى الدعاء المأثور: «يا حى، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»[1]. وقال الشعبى: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم فى هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أى: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخبارا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]. قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذو العظمة والكبرياء.

ولما أخبر عن تساوى أهل الأرض كلهم فى الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه فى جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو فى شأن. وعن مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيا، ويكشف كربا، ويجيب مضطرا، ويغفر ذنبا. وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض، يحيى حيا، ويميت ميتا، ويربى صغيرا، ويفك أسيرا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم. وعن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾» قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين»[2]. قلت: وقد روى موقوفا، كما علقه البخارى بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبى الدرداء[3]، فالله أعلم.

---

(١) الترمذى (٣٥٢٤) وحسنه الألبانى .

(٢) ابن ماجه (٢٠٢) وفى زوائد البوصيرى : « هذا إسناد حسن » ، وحسنه الألبانى .

(٣) البخارى (٨/ ٦٢٠ فتح) .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه. وقال ابن جريج: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أى: سنقضى لكم . وقال البخارى: سنحاسبكم، لا يشغله شىء عن شىء، وهو معروف فى كلام العرب، يقال: «لأتفرغن لك» وما به شغل، يقول: «لآخذنك على غِرَّتك». وقوله: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ الثقلان: الإنس والجن ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ أى: لا تستطيعون هربا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا فى مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ أى : إلا بأمر الله ، ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ـ ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧] ؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾. قال ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار. وقال : الشواظ: الدخان. وقال مجاهد: هو: اللهب الأخضر المنقطع. وقال أبو صالح: الشواظ: هو اللهب الذى فوق النار ودون الدخان. وقال الضحاك: ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ : سيل من نار.

وقوله: ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قال ابن عباس: دخان النار. وروى مثله عن أبى صالح، وسعيد بن جبير، وأبى سنان. قال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاسا ـ بضم النون وكسرها ـ والقراء مجمعة على الضم. وقال مجاهد: النحاس: الصُّفْر، يذاب فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة. وقال الضحاك: ﴿وَنُحَاسٌ ﴾ : سيل من نحاس. والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا؛ ولهذا قال: ﴿فَلا تَنتَصِرَانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟.

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من

الآيات الواردة فى معناها، كقوله: ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله: ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت ﴾ [الانشقاق: ١، ٢]. وقوله تعالى: ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ أى: تذوب كما يذوب الدُّردى والفضة فى السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تَطش عليهم» (١) . قال الجوهرى: الطش: المطر الضعيف. وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وردة كالدهان﴾ قال: هو الاديم الأحمر. وقال أبو كُدَيْنة عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿فكانت وردة كالدهان﴾: كالفرس الورد. وقال العوفى، عن ابن عباس: تغير لونها. وقال أبو صالح: كالبِرْذَون الورد، ثم كانت بعد كالدهان. وقال الحسن البصرى: تكون ألوانا. وقال السدى: تكون كلون البغلة الوردة، وتكون كالمهل كدردى الزيت. وقال مجاهد: ﴿كالدهان﴾ : كالوان الدهان. وقال عطاء الخراسانى: كلون دُهْن الوَرْد فى الصفرة. وقال قتادة: هى اليوم خضراء، ويومئذ لونها إلى الحمرة، يوم ذى ألوان.

وقوله: ﴿فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جانّ﴾، وهذه كقوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، فهذا فى حال، وثَمّ حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين .عما كانوا يعملون﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذا قال قتادة: ﴿فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جانّ﴾، قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. قال ابن عباس: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهو قول ثان. وقال مجاهد فى هذه الآية: لا تسأل الملائكة عن المجرم، يُعْرَفُون بسيماهم. وهذا قول ثالث. وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يُعرف المجرمون بسيماهم﴾ أى: بعلامات تظهر عليهم. وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون. قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أى: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويلقونه فى النار كذلك. وقال ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه، فيكسر كما يكسر الحطب فى التنور. وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره وقال السدى: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويفتل ظهره. وقوله: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ أى: هذه النار التى كنتم تكذبون بوجودها ها هى حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا. وقوله: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ أى: تارة يعذبون فى الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذى هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿ آن﴾ أى: حار، وقد بلغ الغاية فى الحرارة، لايستطاع من شدة ذلك. قال ابن عباس فى

---

(١) المسند (٣/ ٢٦٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٣٣٧ ، ٣٣٨) : « فيه عبد الرحمن بن أبى الصهباء ذكره ابن أبى حاتم ولم يذكر فيه جرحا ، وبقية رجاله ثقات » .

قوله: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ : قد انتهى غليه، واشتد حره. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن، والثورى، والسدى. وقال قتادة: قد أنَى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض. وقال محمد ابن كعب القرظى: يؤخذ العبد فيحرّكُ بناصيته فى ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان فى الرأس. وهى كالتى يقول الله تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ . والحميم الآن: يعنى الحار. وعن القرظى رواية أخرى: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضا، والحاضر لا ينافى ما روى عن القرظى أولا أنه الحار، كقوله تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أى حارة شديدة الحر لا تستطاع. وكقوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الاحزاب: ٥٣] يعنى: استواءه ونضجه. فقوله: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أى: حميم حار جدا. ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك، قال ممتنا بذلك على بريته: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾

قال ابن شَوْذب، وعطاء الخراسانى: نزلت هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فى أبى بكر الصديق. والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدى الله، عز وجل، يوم القيامة ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠]، ولم يطغ ولا آثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخارى عن عبد الله بن قيس، أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءُ الكبرياء على وجهه فى جنة عدن». وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود [1]. وهذه الآية عامة فى الإنس والجن، فهى من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ . ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أى: أغصان نَضِرَة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. هكذا قال عطاء الخراسانى وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجَر، يمس بعضُها بعضا. وحكى البغوى عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبى: أنه الغصن المستقيم. وعن ابن عباس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ : ذواتا ألوان. وقد روى عن سعيد بن جبير، والحسن مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنونا من الملاذ، واختاره ابن جرير. وقال عطاء: كل غصن يجمع فنونا من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ :واسعتا الفناء. وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ينبئ بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أى : تسرحان لسقى تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال الحسن البصرى : إحداهما يقال لها: «تسنيم»، والأخرى «السلسبيل». وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين.

(١) البخارى (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠/٢٩٦) والترمذى (٢٥٢٨) .

ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أى: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ عن ابن عباس: ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظلة. وقال ابن عباس: ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء، يعنى: أن بين ذلك بَوْنًا عظيما، وفرقًا بينا فى التفاضل.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ يعنى: أهل الجنة. والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة التربّع ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة، والضحاك، وقتادة. وقال أبو عمران الجَوْنى: هو الديباج المزين بالذهب. فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى. وعن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر؟ وقال مالك بن دينار: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور. وقال ابن شَوْذَب، عن أبى عبد الله الشامى: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله. ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أى: ثمرها قريب إليهم، متى شاؤوا تناولوه، على أى صفة كانوا، كما قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] أى: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أى: فى الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئا أحسن فى الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء الخراسانى، وابن زيد. وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك، ولا فى الجنة شىء أحب إلى منك، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أى: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن. وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة. قال أرطاة بن المنذر: سئل ضَمْرَة بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات، وللإنس إنسيات. وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال ينعتهن للخطاب: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال مجاهد، والحسن، وابن زيد، وغيرهم: فى صفاء الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ. روى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب». تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه. وقد رواه مسلم عن محمد بن سيرين، قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر فى الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتى تليها على أضوء كوكب دُرّى فى السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يُرَى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما فى الجنة

أعزب». وهذا الحديث مُخَرّج فى الصحيحين[١]. وروى الإمام أحمد عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولَقَابُ قوس أحدكم ـ أو موضع رقده ـ يعنى: سوطه ـ من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا، ولطاب ما بينهما، ولنَصِيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها». ورواه البخارى بنحوه[٢].

وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ أى: ما لمن أحسن فى الدنيا العمل إلا الإحسان إليه فى الدار الآخرة. كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

ولما كان فى الذى ذُكِرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك كله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وقد تقدم فى الحديث: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما»[٣] فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين. وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين. وقال ابن عباس: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: من دونهما فى الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما فى الفضل. والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. وهذا ظاهر فى شرف التقدم وعلوه على الثانى.

وقال هناك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ، وقال هاهنا: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أى: سوداوان من شدة الرى من الماء. قال ابن عباس فى قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قد اسودتا من الخضرة، من شدة الرى من الماء. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: قال: خضراوان. ورُوى عن أبى أيوب الأنصارى، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبى أَوْفَى، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، والحسن البصرى نحو ذلك. وقال محمد بن كعب: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾: ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان من الرى ناعمتان. ولا شك فى نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها فى بعض.

---

(١) المسند (٨٥٢٣) والبخارى (٣٢٤٥) ومسلم (٢٨٣٤/ ١٤).

(٢) المسند (٣/ ١٤١) والبخارى (٢٧٩٦).

(٣) مضى تخريجه عند الآية (٤٦) من السورة.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ قال ابن عباس: أى فياضتان. والجرى أقوى من النضخ. وقال الضحاك: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أى: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر فى الأفراد والتنويع على فاكهة، وهى نكرة فى سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخارى وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما.

ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة فى الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهى المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وفى الحديث: أن الحور العين يغنين: نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام. ولهذا قرأ بعضهم: «فيهن خيِّرات» بالتشديد ﴿حِسَانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، ولا شك أن التى قد قَصَرَت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصِرت، وإن كان الجميع مخدرات.

وقوله: ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ روى البخارى عن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، فى كل زاوية منها أهلٌ ما يَرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون»[1]. وأخرجه مسلم به، ولفظه: «إن للمؤمن فى الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا»[2].

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾: تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد فى وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس: الرفرف: المحابس. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهما: هى المحابس. وقال العلاء بن زيد: الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلى. وقال عاصم الجحدرى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يعنى: الوسائد. وهو قول الحسن البصرى فى رواية عنه. وقال سعيد بن جبير: الرفرف: رياض الجنة.

وقوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدى: العبقرى: الزرابى. وقال سعيد بن جبير: هى عتاق الزرابى، يعنى: جيادها. وقال مجاهد: العبقرى: الديباج. وسئل الحسن البصرى عن قوله: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، فقال: هى بسط أهل الجنة ـ لا أبا لكم ـ فاطلبوها. وعن الحسن رواية: أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العبقرى: أحمر وأصفر وأخضر. وسئل العلاء بن زيد عن العبقرى، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو العالية: العبقرى: الطنافس المخمَلة إلى الرقة ما هى. وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشى. وقال الخليل بن أحمد: كل شىء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقريا، ومنه قول النبى ﷺ فى عمر: «فلم أر عبقريا يفرى فريه»[3]. وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال:

---

(١) البخارى (٤٨٧٩).
(٢) [illegible] (٢٨٣٨/٢٣).
(٣) البخارى (٣٦٨٢) ومسلم (٢٣٩٣/١٩).

هناك: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها، اكتفاءً بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى. وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان. فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخريين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى. وقال ابن عباس: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذي العظمة والكبرياء. وروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الظوا بذي الجلال والإكرام». ورواه النسائي[1]. قال الجوهري: ألظ فلان بفلان: إذا لزمه. وقال ابن مسعود: «الظوا بيا ذا الجلال والإكرام» أي: الزموا. ويقال: الإلظاظ هو الإلحاح. قلت: وكلاهما قريب من الآخر ـ والله أعلم ـ وهو المداومة واللزوم والإلحاح. وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد ـ يعني: بعد الصلاة ـ إلا قدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام»[2].

---

(١) المسند (٤/ ١٧٧) والنسائي في الكبرى (١١٥٦٣) ، وصححه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٨) وأقره الذهبي .

(٢) مسلم (٥٩٢/ ١٣٦) وأبو داود (١٥١٢) والترمذي (٢٩٨) والنسائي (١٣٣٨) وابن ماجه (٩٢٤) .